الدروس التربوية

من الأمثال القرآنية

أ. أناهيد بنت عيد السميري

رمضان ١٤٤٥ من الهجرة النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.

- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الأول الاثنين 1 رمضان 1445ه

"مثل البقرة"

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا ونسأله بمنه وكرمه أن يجعل هذا الشهر المبارك بركة علينا وأن يجود علينا، وهو -سبحانه وتعالى- الجواد، بإعانة نصل بها إلى رضاه، فالخلق لا يصلون إلى رضا الرب -سبحانه وتعالى- إلا بمنّه وكرمه، إلا بفضله ومنّته، فاللهم تفضل علينا بالإيمان، وتفضل علينا بفهم القرآن، اقبل منا أعمالنا، يسر لنا أمورنا، لا حول لنا ولا قوة إلا بك. اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

نبدأ هذا اللقاء الأول لنا في هذا الشهر المبارك رمضان من عام 1445 من الهجرة النبوية الشريفة. نبدأ بالكلام عن "الأمثال في القرآن" وبإذن الله نصل إلى دروس تربوية تكون إرشادية تعيننا في الحياة على تربية أنفسنا وتربية من ورائنا. وبإذن الله نسير في هذه الأمثال على ترتيب المصحف ونذكر ما يتيسر لنا فيها، والأمثال القرآنية نعمة ربانية. حين نفهم معنى المثل نفهم كم هو نعمة؛ لأن الأمثال في القرآن خاصة،

والأمثال عمومًا مقصود بها: أن يفكر الإنسان وينْفذ من خلال المثل إلى ما ورائه، ويركب الأمور ويرتبها بحيث يستفيد من هذا الشبه الحاصل بين الحالة التي هو فيها والحال المذكورة في المثل.

ولذلك قد قال رب العالمين في الأمثال: (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)[1] فهي تحتاج إلى نوع من التفكير والتدبر والفهم، ففيها من تنشيط الذهن، وفيها من تغذية العقل، واختصار المفاهيم ما فيها؛ لذلك أحسن طريقة لدراسة الأمثال هي الطريقة التي يكون فيها فهم للموضوع أولًا ثم تلخيص هذا الموضوع في المثل. وندخل مباشرة في فهم الأمثال ونبدأ بالمثل الأول الذي ورد بترتيب المصحف وهو في سورة البقرة، وإن شاء الله كل يوم نزيد معنى في موضوع المثل، يوصلنا إلى فهم نعمة الله علينا بهذا القرآن، ونعمة الله علينا بضرب الأمثال في القرآن.

فهذه الأمثال غذاء للعقل، تحركه وتجعله يضع قواعد يقيس عليها ما يمر عليه؛ ولذلك من الضروري دراسة

---

[1]() العنكبوت: 43.

المعاني التي يلخصها المثل، وسنرى هذا تطبيقًا على سورة البقرة.

"مثل البقرة"

في ترتيب المصحف هي السورة الثانية وهي السورة الأولى التي ضرب فيها مثل، هذا المثل أتى في الآية السابعة عشر، وأتى بكلمة صريحة (مَثَلُهُمْ) الضمير يشير إلى سابقي الذكر في الآيات، وهنا نقول: لا بد أن نعرف سابقي الذكر وموضوعهم لأجل أن نفهم المثل. فهذا يوجب علينا أن نبدأ بالآيات الأولى في سورة البقرة، وهي آيات معلومة مفهومة سنشير إليها بشيء من الإجمال. كما هو واضح هذه السورة بدأت بثلاثة أحرف مقطعة لا عهد للعرب بتصدير مثلها في إنشائهم أو أشعارهم، وإنما عهدوها من القراء، حين يبدؤون يعلمون التهجي للناشئين يقال: "ألف، لام، ميم." فجاءت هذه الحروف خارجة عن نظامهم، لها سر، تقديمها بين يدي الخطاب -مع غرابة نظمها وموقعها- من شأنه وأثره على الأسماع أن توقظها، وتوجه القلوب لما يلي هذا الأسلوب الغريب. بعد ذلك أتى الخبر عن الكتاب والمؤمنين به. نقرأ الخمس آيات الأولى من السورة:

(الم (1) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

(ذَٰلِكَ الْكِتَابُ) هذه هي الجملة الأولى؛ هذه الآيات المباركات أشارت إلى هذا الخبر العظيم عن المؤمنين بالكتاب، بعد الحروف المقطعة ألحقت بهذه الحروف الثلاثة جمل ثلاثة، أول الجمل إعلان للسامع أن ما سيتلى عليه الآن هو خير كتاب أخرج للناس (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ) وأنه ليس في الوجود ما يصلح أن يسمى كتابًا بالقياس إليه.

الجملة الثانية والثالثة يدعمان هذا الحكم بالحجة والبرهان، كأن السامع يقول: "بأي شيء تتفاضل الكتب؟ أليس تفاضل الكتب إنما هو بمقياس ما تحويه من حق لا يشوبه باطل؟ أليس كمال هذا الحق أن يكون واضحًا، نيرًا، لا يثير شبهة؟" هذا هو مقياس لكون هذا الكتاب يصلح للأخذ منه، تفاضل الكتب بهذا المقياس. أليس أكمل الكمال -بعد أن يكون الكتاب لا شوب باطل فيه، وليس فيه إثارة لشبهة- أن يكون ذلك الحق

الموجود في الكتاب مما يحتاجه الناس في إنارة السبيل وإقامة الدليل خصوصًا لو تشابهت الأمور وتشابكت؟

إذًا الكتب تتفاضل، وهذا الكتاب أفضل كتاب؛ لأنه يحتوي على هذه الأمور، هذه الفضائل الثلاثة موجودة في هذا الكتاب: فهو الحق المحض الذي لا باطل فيه، بل هو الحق الصافي الذي لا شبهة باطل فيه، ثم هو بعد ذلك الهدى المبين الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور.

إذًا هذا (الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ)، و (هُدًى) حق لا باطل فيه، ولا شبهة باطل فيه (لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ).

ثم هو بعد ذلك (هُدًى) مبين يخرج الناس من الظلمات إلى النور، وهذا ما يحتاجه الناس، تتفاضل الكتب بمقياس ما تحويه من حق لا يشوبه باطل، وتتفاضل الكتب أيضًا بأن تكون كاملة لا تثير شبهة، وتتفاضل الكتب بأن يكون الناس أصلًا محتاجين هذا الأمر الذي يتكلم عنه الكتاب. فهذه هي أوصاف الكتاب:

(ذَٰلِكَ الْكِتَابُ) الحق، (لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ)، (فِيهِ هُدًى).

بدأت السورة باستنصات الناس، بلفت نظرهم، باسترعاء أسماعهم، وبعد ذلك أتت الوسيلة المشوقة

التي تثير فيهم باعث الإقبال على هذا الكتاب والاستفادة منه.

الآن سمعنا وصف هذا الكتاب البليغ للقرآن وهدايته، وعرفنا حقيقته لكن كم سيتأثر الناس به؟ فهنا انتقل السياق لبيان أن هذا الكتاب مع هذه الأوصاف، لكن الناس ينقسمون في شأنه إلى فئات ثلاث -هذا الكلام كله واضح، لكن لا بد من فهمه من أجل أن نفهم المثل بعد ذلك-: الفئة الأولى تؤمن به، والثانية كافرة والثالثة مترددة حائرة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فنرى القرآن ينتقل من الحديث عن الكتاب إلى الحديث عن الناس. الخبر عن الناس أتى مع الآية الثانية، وهذا هو الشيء العجيب، الآية الثانية في السورة تتكلم عن الكتاب، (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى) كيف سينتقل الكلام عن الناس؟ هل بجملة جديدة في آية جديدة؟ لا، إنما جعل الكلام عن الناس في نفس الآية، واختار -سبحانه وتعالى- أن يكون الكلام عن المهتدين فترك المعرضين والمترددين ومزج مع الحديث عن القرآن الحديث عن المقبلين على القرآن -نسأل الله أن نكون منهم- القابلين له. فجعل الحديث عن هؤلاء المقبلين القابلين من تمام الحديث عن هداية القرآن نفسه، فقال

سبحانه وتعالى: (هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) فكانت هذه اللام الجارة (لِّلْمُتَّقِينَ) هي المعبرة عن هؤلاء، العابرة بالهداية لهم، إلى نهاية الحديث عن هؤلاء، ويمكن أن تسأل هذه الآية فيها قصْر للهداية على المتقين. قصر الله -عزَّ وجلَّ- الانتفاع بهداية القرآن على هذه الطائفة وحدها بعد أن وصف القرآن بأنه الحق الواضح الذي لا ريبة فيه، فكيف لا يهتدي به إلا هؤلاء؟ أليس القرآن أتى هدى لكل الناس؟ نعم، أتى هدى لكل الناس، كل الناس يمكن أن يستفيدوا منه، لكن الذي سينتفع بهداه على الحقيقة هم من أقبلوا عليه.

هؤلاء الناس الذين يريدون الحق، ما بينهم وبين الهداية إلا أن يسمعوا القرآن. رب العالمين يفهمنا أن الذين سينتفعون بهدى القرآن إنما هم المتقون. لماذا لا يهتدي به الناس أجمعون؟ السبب ليس في القرآن، إنما السبب في نفس الخلق، الذين أعرضوا عن الحق، فيأتينا الخبر عن هؤلاء الذين أعرضوا عن الحق:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

هذا الخبر فيه تقرير الحقيقة بصورة حاسمة، وهذه الحقيقة مريحة للنفس من أجل ألا يطلب الإنسان ما لا سبيل إليه، ولنعلم أن حال أن هؤلاء تستوي عندهم النذارة وعدم النذارة، **سببها** إعراضهم وليس نقصًا في القرآن. حين يقول أحد: "رب العالمين قال إن هذا الكتاب هو الكتاب الكامل الذي لا مقارنة بينه وبين الكتب، وأنه (لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ)، وأنه لا شك فيه ولا يثير شبهة وأن الناس يحتاجونه في الظلمات ليهتدوا، ثم نجد أناس سمعوه ولم يهتدوا، فكيف يكون؟ نقول: هذا ليس عيبًا في القرآن ولا نقصًا فيه إنما عدم قبول له. انظر، هل ينقص من مهارة الطبيب أن يُعرض المريض عن تناول الدواء منه فيموت لجهله؟ وهل يضير الشمس ألا ينتفع بنورها العمي أو المتعامون؟! فبذلك نفهم أن هؤلاء سواء أنذروا أم لم ينذروا لا يؤمنون. وهنا هذه الآية لتعلم أن هناك أناس يصلهم الحق لكن يبقون مصرين فلا تتعجب من الأمر، وليست هذه الآية للحكم على الناس إنما لتفسير الواقع الذي يجده الإنسان، تقول: "هذا جاور أهل القرآن ولم يؤمن، وهذا جاور المسجد ولم يسلم، وهذا أعرب القرآن كله وخرج بجداول تشير إلى إعجاز القرآن وبقي على نصرانيته!" فلا تتعجب،

الكتاب في حقيقته كامل. لكن المستقبلين معرضين مصرين، فانظر كيف انتقل الحديث من المؤمنين الذين سبقت لهم الحسنى إلى الكافرين الذين حق عليهم العذاب. والانتقال هذا ليس أداة عطف إنما ابتدأت الكلمة من جديد (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا). وهذا فيه جواب على السؤال الذي يمكن أن يتعجب به الإنسان: كيف هذا وصف الكتاب وهؤلاء الناس لم يتأثروا؟

ثم بعد أن انتهينا من هؤلاء سيأتينا الصنف الذي طال الكلام عنه، نقرأ الآيات في حق المنافقين:

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (12) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ (13) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ

وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

نجد حرف العطف (وَمِنَ النَّاسِ) في مقابل (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) لم تعطف على ما قبلها، انضم الشكل إلى شكله، وعطفت هذه الطائفة الثالثة على أختها لأنهم مشتركون في أنهم أعرضوا عن الحق، تشابهت قلوبهم وإن اختلفت ألسنتهم، يعني (وَمِنَ النَّاسِ) الذين حقيقتهم أنهم كافرون يقولون بألسنتهم: "آمنا بالله وباليوم الآخر" والحقيقة أنهم ما هم بمؤمنين، فهكذا جرى وصف هؤلاء.

نعود قليلًا إلى طريقة الحديث عن الطوائف الثلاثة لنرى كيف تقابلت أوضاعها أتم التقابل، كل طائفة من هذه الطوائف ربنا أخبرنا عن ثلاثة عناصر فيها مرتبة بهذا الترتيب:

أولًا: وصف لنا ربنا الحقيقة الواقعة لكل طائفة.

ثانيًا: بين ربنا السبب الذي أدى إلى هذه الحقيقة في وصفهم.

ثالثًا: أخبر -عزَّ وجلَّ- عن النتيجة المنتظرة.

فعندنا حقيقة وسبب ومآل.

حقيقة الطائفة الأولى: أنهم قد حصّلوا فضيلة التقوى بركنيها العلمي والعملي، قال: (هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ) إلى آخر أعمالهم، فالحقيقة أنهم قد حصلوا فضيلة التقوى بركنيها:

العلمي المقصود به أن عندهم الإيمان بالغيب، وعندهم الإيمان بالله وعندهم الإيمان باليوم الآخر، في أول الآية الرابعة أنهم (يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) هذا كله يعتبر ركن علمي.

والعملي (يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) هذه الحقيقة أنهم حصلوا فضيلة التقوى بركنيها العلمي والعملي.

وسبب ذلك: أنهم استمسكوا بالهدى، استمساكهم بالهدى، وإمدادهم بالتوفيق من ربهم هو السبب (أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ) هم أقبلوا على رب العالمين ورب العالمين أعطاهم.

ما مآلهم؟ (وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) مآلهم: الفوز والفلاح. فنحن أمام حقيقة وسبب ومآل.

ننظر للآيات التي في وصف الكفار:

حقيقة الطائفة الثانية: أنهم مجردون من أساس التقوى وهو الإيمان، وأنهم مصرون على ذلك إصرارًا لا ينفع معه إنذار، وهذا كله من كلمة (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) إن كلمة تأكيد والذين اسم الموصول يدل على الشهرة، أن هذا الشيء قد اشتهر عنهم. ثم كفروا، ومعناها في اللغة: ستروا وغطوا، ماذا غطوا؟ غطوا فطرتهم السوية التي في قلوبهم، وكما سيتبين بعد ذلك في السبب غطوا أعينهم لكيلا يرون وسدوا آذانهم لكيلا يسمعون، فكلمة كفروا دلت على أنهم ستروا الحقائق عن أنفسهم، منعوها أن تنفذ؛ لذلك يسمى الزراع "كفار" لأنهم يسترون الحب بالتراب، فهذا هو معنى كلمة كُفر في اللغة.

هذه هي الحقيقة أنهم مجردون من أساس التقوى وهي الإيمان، وأنهم مصرون على ذلك، وكلها من حروف التأكيد إن، ثم اسم الموصول الدال على شهرتهم بهذه الصفة أنهم كفار.

بعد أن عرفنا الحقيقة، **ما السبب؟** السبب واضح؛ عدم انتفاعهم بما وهبهم الله من وسائل العلم، فلهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها. هم غطوها فعاقبهم الله بعدم الانتفاع بها، في مقابل أن أهل الإيمان (أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ) أهل الإيمان استمساكهم بالهدى سبّب أن يمدهم الله بالتوفيق والإعانة من رب العالمين، في مقابل أهل الكفر هم مصرون على ألا ينتفعون بالنذر. الحقيقة أنهم مجردون من التقوى، مصرون على الكفر، كان سبب هذا أنهم ما انتفعوا بما وهبهم الله، هم ما انتفعوا فمنعهم الله بعد ذلك من الانتفاع به.

وعاقبة أمرهم العذاب العظيم (وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ).

حقيقة الطائفة الثالثة: صفة مركبة من ظاهر خير وباطن سوء، فهم يقولون بألسنتهم إنهم مؤمنون وليس في قلوبهم من الإيمان شيء. فأمامنا وصفين، هذه الحقيقة في الصنف الثالث مركبة من أمرين: ظاهر وباطن. لكل من الوصفين سبب وجزاء، وأهل النفاق دائمًا يتعبوننا! حتى فهمهم صعب لكونهم يخفون ويظهرون ويبطنون ويمثلون، فشأنهم فيه صعوبة حتى في الفهم، وسنرى كيف ستفضحهم الأمثال وتبين حالهم.

إذًا حقيقة هذه الطائفة: مركبة من ظاهر خير وباطن شر. فنفهم ما **سبب ظاهر الخير** وجزاؤه، وباطن الشر ما سببه وما جزاؤه.

أما دعواهم الإيمان سببه قصد المخادعة، **وجزاء الخداع** عائد إليهم؛ لذلك (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا) والجزاء (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ). يُسأل أهل النفاق: لماذا أظهرتم شيئًا غير باطنكم؟ لأجل الخديعة، وفي الحقيقة ما خدعتم إلا أنفسكم، إذًا هذا سبب وهذا جزاء.

أما **إسرارهم الكفر فسببه** مرض قلوبهم؛ لذلك رب العالمين يقول: (فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) **ما جزاؤهم؟** (فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا)، فالجزاء زيادة المرض، (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) والعذاب الأليم أيضًا. في مقابل أن الإنسان لو وجد في نفسه مرضًا؛ يُقبل على الله يطلب الشفاء وهم يخادعون الله.

هنا سنجد أن الطائفة الثانية الكفار الذين أظهروا الإصرار والعناد والغباء وصل مبلغه حتى أن الإنذار لا يجدي فيهم. لكن الطائفة الثالثة مشكلتها أكبر؛ أنها بلغت من الغرور والجهالة المركبة مبلغًا لا ينفع فيه نصح

الناصحين، بل انقلبت عليهم الأمور. فتصور أنهم يرون نفسهم هم أهل الصلاح، عندهم غرور وجهل مركب بلغ مبلغه! فهم المفسدون ويزعمون أنهم المصلحون، وهم السفهاء ويزعمون أنهم الراشدون. كيف تطلب الدواء لسقيم يعتقد أنه سليم؟! هل هذا سيستجيب لك أن تأخذه للطبيب أو أن تعطيه دواء؟ لن يستجيب لأنه في نظره أنه سليم.

ثم ختم رب العالمين الكلام في شأن الطائفة الأولى بأن سجل لهم وصف الهدى والفلاح (وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) وختم الكلام في شأن الطائفتين الآخرتين بأن سجل عليهم وصف الضلالة والخسران.

فتأتي الآية السادسة عشر: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) بعض أهل العلم، وأهل التفسير، يشيرون إلى أن أولئك اسم الإشارة عائد على الصنف الثالث، وبعض أهل العلم يرى أنها تشير إلى الصنفين لأن أداة العطف تربط بينهم، فيكون معناه أن رب العالمين وصف الطائفتين الأخيرتين بالضلالة والخسران كما وصف الأولى بالتقى والفلاح وهما وصفان متطابقان، الأولى وصفت بالهدى، والثانية وصفت بالضلالة، بل إنهم اشتروا

الضلالة بالهدى، الأولى وصفت بأنها مفلحة، والثانية وصفت بأنها خاسرة (فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ) خسرت تجارتهم، (وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ).

الذي يظهر -والله أعلم- أن الأقرب للصواب إن هاتين الطائفتين كأنهما شيء واحد، معطوفتان على بعضهما لاشتراكها في الحقيقة، والمروي عن ابن عباس وابن مسعود -رضي الله عنهما- "أنه راجع إلى الكفار مطلقًا"، وإذا كان راجع إلى الكفار مطلقًا فهذا يشير إلى الاثنين لأن المنافقين نفاقًا أكبرًا كفار.

وهنا يقصد بالنفاق الأكبر النفاق الاعتقادي، كما وصف الله هنا في هذه الآيات؛ أن هؤلاء في الحقيقة في باطنهم لا يؤمنون بالله، لكنهم مع جماعة المسلمين يظهرون الإيمان لأجل أن يستفيدوا من إظهار الإيمان فوائد في الدنيا، لكنهم لا يريدون الإيمان ولا يرغبون فيه، ولا لهم في الإيمان شيء، فهم في حكم الكفار تمامًا. وهذا غير النفاق الأصغر الذي ورد في الحديث: «آيَةُ المُنافِقِ ثَلاثٌ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وعَدَ أخْلَفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خانَ»[2]، هذا النفاق الأصغر الذي يسمونه

---

[2]() أخرجه مسلم (59).

"نفاقًا عمليًا" هذا يكون من بعض أهل الإيمان، يكون من المسلمين، لكن إذا استحكمت الصفات ووقع نفي الإيمان من القلب فهذا هو النفاق الأكبر.

الشاهد أن المروي عن ابن عباس وابن مسعود -رضي الله عنهما- "أنه راجع إلى الكفار مطلقًا".

وحين نقسم حال الناس؛ في نهاية الأمر لا يوجد إلا واحد مهتد وواحد ضال، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ إذا كانوا كلهم عن الهدى ناكبين وفي الضلالة مشتركين فاسم الإشارة يشير إليهم جميعًا. ونؤكد أن في الآية الخامسة رب العالمين قال: (أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى) وهنا رب العالمين قال: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى) فمقابلتهم تامة الوضوح.

فهمنا لهذا يساعدنا على فهم المثل؛ لأننا إذا اتفقنا أن طائفة الكفار واحدة، حين نأتي إلى المثل سيشير المثل إليهم. إن شاء الله يتبين هذا وقت ذكر المثل، لكن سنعتمد أن الله جمع بينهم بالعطف، وجمع بينهم في الإشارة؛ لذلك ضرب الله للطائفتين مثلًا يناسبهما، هناك مثل للطائفة الكافرة ومثل للطائفة المنافقة، ضرب مثلًا للمصرين المختوم على قلوبهم بقوم كانوا يسيرون في

ظلام الليل، نقرأ الآيات ثم نشير لما يتيسر وغدًا نستفتح بالمثلين:

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (17) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

سنسير على أن مثلًا ضرب للكفار ومثلًا ضرب للمنافقين، فضرب الله -عزَّ وجلَّ- مثلًا للمصرين المختوم على قلوبهم بقوم كانوا يسيرون في ظلام الليل، فقام فيهم رجل استوقد لهم نارًا يهتدون بضوئها، فلما أضاءت ما حوله لم يفتح بعضهم أعينهم لهذا الضوء الباهر، بل لسبب سُلبوا نور أبصارهم، وتعطلت سائر حواسهم عند ظهور النور. فالله يقول: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ)، ورأى الناس النور، (ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ). واحد استوقد نارًا، لما أضاءت ما حوله ذهب الله بنور الجماعة وترك الجماعة (فِي

ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ)، ثم إنهم (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) وهنا نجد مناسبة (خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) كيف يفهم هذا المثل؟ لو قلنا إنه في شأن الكفار نقول: مثل النور الذي استوقد إنما ما جاء به النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- في تلك الأمة الأمية على فترة من الرسل، فتفتحت له البصائر، ورأى هؤلاء النور، لكن هذا النور لما أضاء وتبين، جماعة معينة من أصحاب الأهواء لم يوافقهم النور! لم يوافق النور أهواء المستكبرين الذين ألفوا عيشًا معينًا في ظلام الجاهلية، فلم يرفعوا له رأسًا ولم يفتحوا له عينًا، بل نكسوا على رؤوسهم وخروا عليه صمًا وعميانًا، لذلك الله في سورة فصلت قال عزَّ وجلَّ: (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى). هذا المثل بالإجمال.

وضرب مثلًا للمترددين المخادعين بقوم نزل عليهم غيث من السماء منهمر في ليلة ذات رعود وبروق، فأما الغيث فلم يلقوا له بالًا ولم ينالوا منه، فلا شربوا منه قطرة ولا استنبتوا به ثمرة، ولا سقوا به زرعًا ولا ضرعًا، وإنما قابلتهم تلك التقلبات الجوية من الرعد

والبرق، فصارت هي مسار اهتمامهم، ومناط تفكيرهم؛ لذلك أصبحوا مركزين فيها يترصدونها ويديرون أمورهم وفقها، مرة يسيرون ومرة يقفون، وهذا كله لأنهم مركزون في البروق والرعود. وهذا المثل مثل القرآن الذي أنزله الله غيثًا تحيا به القلوب، وتنبت به ثمرات الأخلاق الزكية والأعمال الصالحة، وهذا القرآن كان اختبارًا لأهل الإيمان بالصبر والجهاد، وفيه سلم وفيه حرب وفيه غلبة وفيه نصر. هؤلاء ما كان لهم حظ من هذا القرآن في أن يغذي أرواحهم ولا أشربوا حبّه في قلبوهم، ما أحبوا القرآن فلم يتذوقوا ما فيه من غذاء لأرواحهم، بل أهمتهم أنفسهم وشغلتهم حظوظهم العاجلة، حصروا كل تفكيرهم فيما قد يحيط به من مغانم يمشون إليها، أو مغارم ومسؤوليات يتقونها، أو مآزق تجعلهم يقفون موقف الرؤية والانتظار، يرون ما يفعلون، يقدمون أو يحجمون. وهكذا ساروا في تدينهم؛ سيرًا متعرجًا متقلبًا، مبني على قاعدة الربح والخسارة والسلامة الدنيوية! تتصورهم مثل إذا رأوا عرضًا قريبًا وسفرًا قاصدًا وبرقت لهم بروق الأمل في الغنيمة ساروا مع المؤمنين جنبًا إلى جنب، وإذا دارت رحى المصاعب وانقضت صواعقها منذرة بالموت أو

الهزيمة أو الأخذ؛ يأخذون حذرهم ويفرون من وجه العدو ويقولون: (إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ)[3] أو يرجعون من بعض الطريق ويقولون: (لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ)[4].

إذا جاءت الحالة الثالثة إذا ما لمحوا من الآمال بارقة ولم يتوقعوا آلامًا صاعقة، اشتبهت عليهم الأمور، ولم يعرفوا هو ألم أو أمل، تلبدت السماء بالغيوم، هنا يقفون متربصين لا يتقدمون ولا يتأخرون، يصيرون محايدين ريثما تنتهي سحابة الشك. يقول الله في سورة النساء: (فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) يتلونون، وهذا دأب المنافقين في كل أمرهم:

- إن توقعوا ربحًا عاجلًا التمسوه في أي صف وجدوه.
- وإن توقعوا أذى وآلامًا تنكروا للفئة، هؤلاء سيأتي منهم ألم؛ يهربون منهم.

---

[3] () الأحزاب: 13.

[4] () آل عمران: 167.

- وإن أظلم عليهم الأمر؛ يقفون، ينتظرون، يبقون على الحياد إلى أن يعرفوا إلى أي شيء تتجه الريح.

شأنهم عجيب لكنهم كثير إلى درجة أننا مضطرون أن نعود غدًا مرة أخرى ونفهمه، ونذكر القول الثاني عند المفسرين ونعود إلى الدروس التربوية التي نأخذها من هذا المثل العظيم الذي يصور لنا حال نفوس ما دخل الإيمان إليها!

نسأل الله أن يجعل القرآن الكريم ربيعًا لقلوبنا ونورًا لصدورنا وجلاءً لأحزاننا وهمومنا، اللهم آمين.